(تحت ظل شجرة)

ذات يومٍ كنت جالساً تحت شجرة

آوي إلى ظلها

فاقترب مني رجل هرم يتعكز على عصاه

وأخذ يحدق في وجهي وكأنه يعرفني

رغم أنني أجهله لم أقل شيئاً ولم أسأله من أنت

ظل ينظر لي بتملق وعيناه تجول في كل ثنايا وجهي

كبحارٍ تائهٍ في بحرٍ لُجٍ كان يفتش في خرائطهِ عن جزيرة

يحتمي إليها فتكون له النجاة

كان يشبهني إلى حدٍ كبير

قلت في نفسي ربما يرى فيَ صباه

ثم لاح بوجهه عني ناظراً إلى السماء وهمس متنهداً

كنت أجلس هنا منذ قرابة عشرين عام ، ثم سكت

فنظرت له فإذ بعينيه وقد اغرورقت بالدموع

فقلت بصوت العطف أكمل

فنظر إليَ ثم إلى أغصان الشجرة وقد انهزمت دموعه

لن يستطيع كبح جماحها فانهمرت كالسيل يعلن قدومه

وقال بصوت تعلوه الحسرة والشجون

ذات صباح كنت أجلس هنا أنا وزوجتي وابني تحت هذه الشجرة

كانت الشمس تشرق في قلوبنا بالحب

وبين الأغصان كانت ترفرف من فوقنا السعادة

وقتها كنت أنا وزوجتي نتسامر الحديث ضاحكين

وقد أسندنا رأسينا إلى جزع الشجرة

وكان ابننا كما الكروان المغرد يشدو من حولنا ويمرح

كنا نرى فيه الأمل والغد البهيج

كان إذا خطى خفق قلبينا وإذا ضحك أشرقت الشمس

وإذا ما تلفت لنا رأينا فيض الحب يغمر المكان

غير أنه وعلى حين غُرةٍ منا اختفى

وكأننا كنا في ليلةٍ مقمرة

ثم وفجأة تخطفت الغيوم أنوار القمر فأظلمت السماء

ظللت أنا وأمه نصرخ ونبحث في كل مكان

وكأنه يوسف النبي في جماله وكأنه يوسف عندما ضاع مني

كان الحزن يعتصر قلبي ولكن كنت أكتمه لأجل أمه

التي كانت تنام ولا ينام نواحها

كشجرةٍ اقتلعها الحزن عندما جف عنها الجدول العذب

وفي يومٍ كئيبٍ رحلت زوجتي بعد أن فقدت عينيها من أثر الدموع

رحلت تاركة إياي أُجابه وحدي قساوة الزمن

عشرون عاماً لم أضحك ، عشرون عاماً وأنا أجئ إلى هنا

ثم سكت عن الكلام وعاود النظر لي

فأخذت أتطلع فيه أكثر

لكنه قاطع نظراتي الصامتة بصوت الشجون قائلاً كم عمرك ؟

فقلت أبلغ من العمر خمسةً وعشرين عاماً

فقال وهو يزيح عن صدره حجراً إنك في عمره لو كان حياً

ثم أعقب ولما تجلس هنا يا بني في ذات المكان ؟

قلت إن حكايتي قريبة من حكايتك

غير أني أعرف أبي وأمي لكنهما كانا مسافران

مسافران ولم يعودا بعد

هكذا قالت لي السيدة التي ربتني وحقاً كم غمرتني بحبها

وكانت تأتي بي إلى هنا وتبكي وأنا لا أعرف لما كانت تبكي !

ثم مرضت بداءٍ عضال وماتت وحزنت لرحيلها فكنت أراها أمي

والأن أجئ إلى هنا ربما عرفت لما كانت تبكي

غير أن للفراق غصة في النفس لا تهدأ إلى مع الدموع

عندئذٍ صدح عصفور فنظرنا أنا وهو إليه

فإذ بعصفورٍ يطعم صغاره ويرويهم حباً وحناناً

فضحكنا معاً

فقال لي إنها أول مرة أضحك فيها منذ فراق ابني

ثم فاجأني بصوت المتوسل الخاضع

ما رأيك يا بني أن تصاحبني فتكون ابني وأكون أباك

فلم يبق في العمر إلا كما بقاء ورقة الشجر التي أذبلها عناء الشتاء

فقلت له لا تتوسل

إنها مشيئة الرب أن تجدني وأجدك

أن نضحك هنا في ذات المكان الذي بكينا فيه

ثم تعانقنا ولم أُدهش أنه أطال عناقي

فكنت أنا أيضاً على هذا النحو من الإشتياق للحنان

وعندما أمسك بعكازه ليتسند عليه

قلت له من الأن لا حاجة لك به

وتركناه إلى جزع الشجرة ثم مضينا